مصنع ضائن

للوستاذ سمير ابو الحسن

المحامي في المحاكم السورية

كان مولعا بالتهريب :

لقد صارت المتاجرة بالمحرمات روحا من روحه ، ودما من دمه ! يهمه ان يجني الربح الوفير - وليس يهمه بعد ذلك مايقوله الناس عنه - وما شأن الناس وشأنه ! اليس حرا يفعل مايشاء ؟ ثم ما اسهل ارضاء الناس ! وليمة واحدة من كسب هذه التجارة ترضي اهل المدينة كلهم ، تخرس جميع الالسنة وتستميل جميع القلوب . تجعل الاعجاب يحل محل الانتقاد انه المال ! انه الاصفر الرنان - لاطعم له ولا رائحة ! (ماالفرق بين ان يأتيك المال من تجارة دنيئة او تجارة شريفة ؟ وهل يفرق الناس بين درهم من اصل وضيع ودرهم من اصل رفيع عندما يصير الدرهم في جيبك لا يبقى في الوجود من يجرؤ على انتقادك واحتقارك . . . !

همه في الحياة ان يربح - يهرب المخدرات ولا يسأل عن اثرها في تهديم الامة . وهل تساوي الامة شيئا في نظره ؟ - يهرب الاسلحة والذخائر ولا يهمه في أي شيء تستعمل . ألا يقبض هو ثمنها ؟ هذا كل ما يهمه من الامر . وأي ثمن يقبض ؟ الثمن الفاحش الذي يعوض عليه ما تعرض له من مخاطر .

وكان كل ربح جديد يشجعه على المضي في تجارته تلك ، ويجعل ذهنه يتفتق عن اساليب جديده مبتكرة في اخفاء امره عن الجميع : فلا رجال الدرك - ولا رجال الجمرك - ولا غيرهم يمكن ان يأخذوه بجرم ، او يصطادوه بكمين . وما زال هذا امره حتى عام ١٩٤٥ .

في هذا العام اتخذ لنفسه مكتباً للنقليات في سوق (مدحت باشا) بدمشق . وصار يهتم كثيراً بمظهره . فيرتدي احسن الثياب - على الطراز العربي - كل ثيابه من الجوخ صادرة عن اشهر محلات التفصيل والخياطة في العاصمة السورية . ويرتدي عباءة سوداء فاخرة من الجوخ المطرز بالذهب . وكان يعتني في اناقة زائدة بوضع كوفيته الحريرية الناصعة البياض وعقاله ، وبشاربيه المطلقين المعقوفين . ويتضمخ بأشهر انواع العطور الباريسية .

واخذت اعماله تتسع وعدد سياراته تزيد ، ومظهره يدل على ان الاموال تتكردس لديه بصورة غير عادية . فالكتاب اكثر من خمسة ، والمستخدمون اكثر من عشرين - والسماسرة اكثر واكثر ، جيش من الأتباع يعيش من ماله ويأتمر بأمره -

وقد ادهشنا كثيراً - نحن ابناء بلده - هذا الانتقال المفاجئ من مدينتنا الريفية الصغيرة الى العاصمة

وكنا فريقاً من الشبان القوميين المتحمسين لكل ما يمس قضية العرب القومية من قريب او بعيد وكنا بصورة خاصة نهتم بما يتعلق بفلسطين لاعتقادنا انها نافذة الخطر في جدار الوطن العربي . وطالما دعونا الناس الى الاهتمام بها والعمل على انقاذها وطالما كتبنا في هذا الموضوع وخطبنا وكانت لنا عيون مفتوحة على كل حركة تقاوم آراءنا واعمالنا . وكانت لنا شبكة من الجاسوسية تراقب حركات المهربين ؛ فصرنا نعرف كل واحد منهم ونوع البضاعة التي يهربها والبلاد التي يهرب منها واليها وعندما كنا نشتبه بان احد المهربين صار يدخل الى البلاد بضائع صهيونية كنا ننبه السلطات المختصة الى امره : لأن عمله مخالفة صريحة لميثاقنا القومي لا يجوز السكوت عنه . واذا اطلعنا على ان احد المهربين يتجر بالاسلحة مع اليهود فيسهل لهم ولسماسرتهم امر الحصول عليها كنا لا نتورع في مراقبته والقاء القبض عليه في الجرم المشهود وتسليمه الى العدالة يداً بيد. واذا قيل لنا : « ما دخلكم في الامر » فجوابنا « ان القضية العربية امانة في عنق كل عربي ؛ فمن واجب كل

عربي ان يحافظ عليها بكل ما يملكه من وسائل ، وان يبذل حياته وحياته في سبيل صيانتها . »

وفي ليلة من الليالي ؛ جاءني احد اعضاء فرع الاستعلامات في الحزب وقال : (ان لدي امراً خطيراً اريد أن اطلعك عليه . .)

— هات ما عندك .

— لقد ثبت لدي ان (يوسف) صاحب مكتب التقليات بدمشق يقوم بتهريب اليهود من دمشق الى فلسطين عبر الاراضي الاردنية . انه يلبسهم الالبسة العربية وينقلهم بسياراته من دمشق الى هذه المدينة . حيث يقضون النهار في داره ؛ وفي الليل ينقلهم حتى يجتاز بهم الحدود الاردنية . وهناك يسلمهم الى شركاء له من المهربين يوصلونهم الى المدن الفلسطينية .

ويعيد السيارات بطريق العودة بضائع صهيونية يسلمها اليه شركاؤه فينقلها الى هذه المدينة حيث يبيع بعضها وينقل البعض الاخر الى دمشق بطريق الصحراء وله في كل قرية على الطريق عملاء يسهلون مهمته ويراقبون حركات رجال الدرك والجيش بحيث يعينون له اوقات مرور الدوريات في هذا المكان او ذاك . ويمكنونه من عدم الوقوع في قبضة هذه الدوريات وثبت لدي مما تلقيته من رسائل من رفاقي المقيمين في اماكن مختلفة ان يوسف قد نجح حتى الآن في تهريب المئات من رجال اليهود ونسائهم . وانه قد قبض من الوكالة اليهودية — أي من ممثلي الوكالة بدمشق — مبالغ طائلة تغري نصف الناس فضلا عن ادنياء النفوس . وان اتخاذه مكتبه في شارع (مدحت باشا) بدمشق لم يكن عفواً بل لقرب هذا الشارع من حي اليهود بعاصمة سوريا . فكان من اسهل الامور الاتصال باليهود والتعامل معهم وتهيئة الركاب بلباسهم العربي والخروج بهم عن طريق الصحراء دون ان يرتاب في امره احد .!

— وهل يسلك دائماً الطريق ذاتها ؟

— نعم انه يسلك الطريق ذاتها ذهابا وايابا . وان رجال الدرك يعتقدون ان ركابه من اهالي القرى السورية المتاخمة للاردن . ولهذا تراهم لا يهتمون بامره ابدا .

— بقي لي عليك امر وهو ان تراقب حركات هذا الرجل ليلا ونهاراً وتعين لي موعد سفره [بالشحنة] القادمة نحو الحدود .

— هذا ما سأفعله بكل تأكيد .

— ليكن الله معك . واعلم انك تؤدي بعملك هذا خدمة جلى لقضيتك القومية .

تركني [نضال] ومضى .

اما انا فارسلت استدعى خمسة من الفدائيين التابعين للحزب واوصيتهم بان يكونوا على اتم الاستعداد للسفر في أي ساعة = ليلا او نهاراً = لدينا مهمة خطيرة جداً . فليكونوا متأهبين بالسلاح التام . وعينت لهم اشارة خاصة ارسلها اليهم فيجتمعون فوراً في مكان كذا خارج المدينة .

وبعد يومين جاء [نضال] وعلى وجهه علامات الاهتمام الشديد وفي لهجته رجولة وحزم . وما ان دخل حتى سألته :

— وما وراءك ، يا نضال ؟

— ورائي صيد شهي . ان صاحبنا وصل الليلة في سيارة ملأى « بالعرب المزيفين » — يريد اليهود بزي العرب — انهم الآن مختبئون هنا في هذه البلدة وسيسافرون الليلة الى الجنوب ستتحرك سيارتهم في تمام الساعة الثامنة . عرفت هذا من السائق الذي يعلن بدون حذر انهم يقصدون قرية « كذا » لان معهم ركابا من اهلها . وان المهرب يوسف يسافر معهم .

— حفاك الله يا نضال انك جدير باسمك هذا . اذهب الآن فقد انتهت مهمتك .

في الساعة السابعة كنت والفدائيين الخمسة في المكان المعين ومعنا سيارة (جيب) امتطينا السيارة التي كنت اسوقها وسرنا في طريق غير الطريق التي سيسلكها المهربون . ولكن لم نبتعد عن المدينة بضعة كيلو مترات حتى انعطفنا نحو تلك الطريق وسلكناها دون ان يدري بذلك احد .

وكان رفاقي — كعادتهم — صامتين لا يعرفون الى اين نذهب ولا يسألون .

وفي الطريق واد عميق تكثر حوله الصخور الشاهقة واشجار السنديان . وقفت السيارة الى جانب الطريق وراء احدى الصخور وقلت لرفاقي :

— بعد قليل ستمر بنا سيارة [باص] لونها كذا ورقمها